التراث العربي..
بين الأنا والآخر

عبدالنبي اصطيف

ثمة انطباع عام لدى العرب والمسلمين أن تقليد (الاستشراق)، بوصفه معرفة عن الشرق وأهله؛ تاريخاً وثقافة ومجتمعات، كان دائماً أداة بيد الاستعمار القديم، والإمبريالية الحديثة والمعاصرة، وأن منتجي هذه المعرفة من المستشرقين لم يكونوا غير عملاء، أو أُجَراء، أو مُخْبِرين، استخدمتهم دولهم الغربية لِيُنتجوا ما يساعد على احتلال دول الشرق، واستغلال ثرواته، واحتواء ثوراته، وإلحاقه بالدول المستعمِرة تابعاً منضوياً يُسلِّم أمره كله إلى سيّده، وولي أمره، الذي يعرفه (والمعرفة قوة)، أكثر مما يعرف نفسه، ومن ثمّ يعرف ما يصلُح له، وما يفيده، وما يضرّه.. كيف لا، وهو السّيد الأبيض الذي لا يبغي غير تأدية ما عليه من واجب وعبءٍ تجاه (الآخر)، الذي لا بدّ من الارتقاء به ليبلغ مستويات العالَم المتحضِّر، وليس هناك أفضل من الغرب ليقوم بهذه المهمة النبيلة!

والحقيقة أن خطر التعميم، الذي يُخالط عادة أي انطباع أو حكم على (الآخر/ الغربي)، في هذا المقام، ليس مبعث التحفّظ الذي يمكن أن يبديه المرء تجاه حكم كهذا على الاستشراق والمستشرقين، لأن التقويم الموضوعي للمعرفة الاستشراقية ولِمُنتجيها، قد يفضي إلى حكم مباين بدرجة ما للحكم الشائع، ولا سيما ما يتصل منه بالتراث العربي والإسلامي، الذي ظفر بعناية مؤسسات الاستشراق ودوائره والعاملين فيه، بلغت درجة لا يمكن مقارنتها بعناية أهله به، لأنّ بينها وبين عناية (السابق) الغربي، مسافات لا تبعث على الارتياح لدى الباحثين العرب والمسلمين، لأنها تكشف عن تقصير لا مُسوِّغ له في الاهتمام بهذا التراث: جمعاً، وحفظاً، وفهرسةً، وتحقيقاً، ونشراً، ودراسة، وهو ما ينبغي أن يكون ضمن أولويات المجتمعات العربية والإسلامية، إن لم يكن أولوية مطلقة بسبب أهميته للهويتين العربية والإسلامية في عصر العولمة.

أما جمعه الذي شابَهُ كثير مما لا يليق بالعلاقات الإنسانية بين الأمم والشعوب؛ من استغلال ونهب وغير ذلك من السّوْءات، فقد أبلى فيه الغرب أحسن البلاء، إذ اتَّخذه صيداً ثميناً، واتّجر به ولايزال، وجعل منه استثماراً درَّ عليه، ولايزال، كثيراً من المغانِم، حتى من أصحابه الأصليين الذين صحوا بعد غفلة، وتنبهوا بعد فوات الأوان، إلى أهميته، وأدركوا بعد لأيٍ خطورة فقدان مصادر تراثهم الذي يفخرون به، إذ باتت في أيدي غيرهم.

وقد تمَّ هذا الجمع في معظمه بطرق غير مشروعة؛ كالشراء بثمن بخس بسبب جهل أصحابه بقيمته، أو النهب في أثناء الغزو والاحتلال، أو الهدايا التي كان يتقرّب بها بعض أصحابه من السيّد الغربي؛ والشواهد على ذلك موفورة. فعلى سبيل المثال، تشير (مايا جيسون–أوف)، الأستاذة في جامعة فيرجينيا في الولايات المتحدة الأمريكية، في كتابها (طرف الإمبراطورية الغزو والجمع في الشرق ١٧٥٠–١٨٥٠م)، لندن (٢٠٠٦م)، إلى اقتران الاستعمار الغربي للشرق بجمع كلِّ ما هو ثمين ومثير للفضول، في مختلف أنحاء الشرق، من (مخطوطات، ولقى أثرية، وروائع فنية) وغيرها.. وتذكر أن دوافع السفر إلى طرف الإمبراطورية الشرقية لدى جامعي هذه الكنوز، تشمل: الطموح، والانتهازية، والفضول، وجاذبية الشرق وسحره، فضلاً عن الطمع الدنيوي والرغبة في الاغتناء السريع.

> **لم يكتف الغرب بجمع المخطوطات العربية الإسلامية وحفظها وصيانتها وترميمها بل عمد إلى تحقيقها**

والحقيقة أن الأدلة على هذا النهب الواسع، والمنظم غالباً، أكثر من دامغة، على ما يُعدّ في نظر القوانين الدولية، جرائم تُحاسب عليها حتى قوانين الغرب التي يُفاخِر بها. ولكن من أين للضحية الضعيف أن يظفر بأدنى حقوقه حتى أمام القانون؟! وهكذا انتهى المطاف بما جُمِع من مخطوطات، ليغدوَ من المقتنيات الثمينة للمكتبات الجامعية والعامة ومراكز الأبحاث والمتاحف، التي تُرمَّم، وتُحفَظ في بيئة تُبعِد عنها عوامل التلف، وتُصوّر، وتُفهرَس، وتُنشَر فهارسها في كتب ومجلدات، وعلى مواقع خاصة في الإنترنت، وتُبذَل بعد ذلك صورُها، للقاصي والداني، بعد دفع ما ينبغي من ثمن يغطي نفقات الحفظ والصيانة والفهرسة والتصوير، وغيرها من عمليات استثمر فيها الغرب ما استثمر من مال وجهد ووقت وخبرة، يُغبَط عليها.

ولم يكتف الغرب بجمع المخطوطات العربية والإسلامية وحفظها، وصيانتها، وترميمها، ثُمّ فهرستها، وتصويرها، بل عمد باحثوه والمختصون بهذا التراث، إلى تحقيقه ونشره نشرات علمية، وتشجيع الدارسين على تدبّره تدبُّراً يغني المعرفة الإنسانية بمحتواه، وربما يُغري بترجمته ونشره لاحقاً في طبعات شعبية، تُسهِّل الانتشار الواسع له بين مختلف شرائح المجتمعات الغربية. ولعل من الإنصاف القول: إن المستشرقين الأوائل كانوا أساتذة المحققين العرب والمسلمين، الذين أفادوا من مناهجهم في التحقيق، غير أنهم تجاوزوهم لاحقاً في صحة قراءة النصوص ودقتها وتلمّس أصولها وتخريجها.

والحقيقة أنه على الرغم من فقداننا الكثير من هذه المخطوطات، نتيجة الغزو والحروب الأهلية، والكوارث الطبيعية، فإننا نجد المكتبات الغربية: العامة، والجامعية، ومكتبات مراكز الأبحاث، قد أسهمت أيّما إسهام في الحفاظ على المخطوطات العربية، وحالت دون ضياع كثير منها، كما أن فهرسة هذه المخطوطات، قد ساعدت على نشر الاهتمام بها، ويسرت للباحثين في شرق العالم وغربه، وشماله وجنوبه، الاطلاع عليها، مثلما ساعد تحقيق بعضها على دراسته وإدخاله في متون الدراسات المتعلقة بالشرق وأهله، ومن ثمّ أسهمت دراسته في الكشف عن جوانب مهمة، بل خطيرة، في تاريخ المعرفة الإنسانية، وفي تعرُّف منتجيه وثقافاتهم وتواريخهم ومجتمعاتها، مثلما وثّقت إسهامهم في الحضارة الإنسانية.

صحيح أنه قامت على هذا التراث، ولا سيما المخطوط منه، تجارة واسعة عابرة للحدود، بل تأسست من أجله أجهزة تُنظِّم مزادات تداوله، وخُصِّصت له معارض تروج لهذه التجارة، وأجنحة خاصة في متاحف عامة وخاصة لعرضه والمباهاة بنوادره؛ وصحيح أن ثمة ما يُتَحفَّظ عليه في أعمال التحقيق التي قام بها المستشرقون، وأن هناك ما يُعترَض عليه بشدة من بعض الآراء، أو كثير من الآراء التي يُبديها دارسوه من غير أهله، ولكن ليس ثمة ما يستطيع أهله هؤلاء أن ينافسوا نظراءهم الغربيين فيه، من خدمات لهذا التراث، ما خلا مؤسسة الفرقان (ومقرها لندن)، وما تقوم به من جمع وتصوير وصيانة وترميم وتحقيق ونشر لهذا التراث.

ومقابل هذه الجهود التي تُسجَّل للغرب، وترفع رصيده المرموق في العناية بتراث (الآخر) العربي والمسلم، نجد أن إسهام المؤسسات الإسلامية والعربية الرسمية والأهلية، القُطرية والقومية والعابرة للقوميات، من جامعات، ومجامع علمية، ومعاهد مخطوطات، ومراكز أبحاث، ومديريات تراث في وزارات الثقافة، ومؤسسات النشر العامة والخاصة، إسهام محدود، وما قام به (الداخليون) متواضع غاية التواضع، كمّاً وكيفاً، إذ لم يُنتجوا من هذه الناحية بقدر ما أنتجه الغربيون، ولم يتجاوزوا بعملهم إتقان الغربيين.

وقد يشير المرء إلى أعمال كل من: فؤاد سيزكين، ومحسن مهدي، وعرفان شهيد، وغيرهم.. ولكنه لا يلبث أن يتذكر أن هذه الأعمال قد أُنجزت في المؤسسات الجامعية والبحثية الغربية، التي ما فتئت تقدم الجديد والمتقن من هذه الأعمال، وربما كان من آخرها إصدار طبعة مترجمة إلى الإنجليزية من كتاب كارل بروكلمان (تاريخ الأدب العربي)، تحمل عنوان بروكلمان بالإنجليزية: (تاريخ التراث العربي المكتوب)، وإتاحته على الشابكة، وذلك بعد أن أصبحت الإنجليزية لغة عالمية في عصر العولمة، ما ييسر انتشار الاهتمام بالتراث العربي بين الناطقين بها، وهم كُثُر، يتجاوزون ثلث سكان المعمورة.

من غير المجدي التعميم بأن الاستشراق كان أداة للاحتلال والاستغلال

ظفر التراث العربي الإسلامي بعناية كبيرة من مؤسسات الاستشراق ودوائره والعاملين فيه

مازالت المكتبات الغربية تحافظ على تلك المخطوطات وحالت دون ضياعها